الطبري والتأريخ لأحداث عصره

الدكتور سهيل زكار

جامعة دمشق

الطبري مفسر و مؤرخ كبير ممتاز بنظرة عالمية في التاريخ و هو فقيه متمكن يستمد مصادره من القرآن الكريم و تراث الاسلام. تناول الكاتب في مقالته تاريخ الطبري بالبحث فبين اسلوبه في نقل الروايات المختلفة، وقارن بينه و بين عدد من المؤرخين كابن عساكر و غيره.

وتحدث عن تاريخ تصنيف الكتاب و مدى عرضه لتاريخ الاندلس و بلدان المغرب العربي. وارتباطه بالتاريخ السياسي والعسكري وابتعاده عن المنهج الفكري.

من المفترض أن يكون المؤرخ مرآة لعصره وبيئته، تنعكس في كتاباته بشكل مباشر أو غير مباشر صورة وقائع أيامه وردات الفعل تجاهها، و كان العصر الذي عاشه الامام المؤرخ محمدبن جرير الطبري هوالقرن الثالث للهجرة والبيئة هي المشرق الاسلامي بما في ذلك بلاد الشام و مصر، فإلى أي مدى كان مؤرخنا العظيم مرآة للقرن الثالث، قرن العطاء الأسلامي الاعظم والأشمل.

وصلت الحضارة الاسلامية في القرن الثالث إلىٰ ذروة العطاء والشمولية العلمية، والامام الطبري هو بالفعل خير ممثل و نموذج للمثقف المسلم في ذلك العصر، فقد أتقن معرفة علوم العربية والقرآن الكريم والفقه والحديث، و نال قسطاً وافياً من جميع صنوف المعارف التي توفرت آنذاك للمسلمين، و هذا واضح تمام الوضوح في النتاج الغزير والرائع الذي خلفه لنا، و هو جلي أيضا في أخبار سيرة حياته و ما حكاه عنه تلاميذه و أبناء عصره.

ولم تكن صورة القرن الثالث كلها مشرقة كاشراق المعارف والعلوم والثقافات فيه، و في هذا القرن فقدت ديار الاسلام وحدتها السياسية، و تحكم ضباط القصر الأتراك ـ أتراك المعتصم ـ بالخلفاء يخلعون و ينصبون كل يوم ربما أكثر من خليفة واحد، و تغلب على بقاع ديارالمسلمين متغلبون، أسس كل منهم دولة واتخذ لنفسه بلاطاً حشر إليه ما أمكنه من العلماء، لذلك غدالكل دولة نشاطها العلمي المتميز و سياستها الأقليمية الذاتية الخاصة، لذلك أخذت «الشخصيات الاقليمية» بالظهور لتحل محل شخصية الامة الاسلامية الواحدة.

و كان علم التاريخ عندالمسلمين قد خطا خطوات واسعة في ميادين تطوره فهذا العلم الذي جاء بالأصل وليداً لعلم الحديث بوساطة علم السيرة والمغازي قد استقل إلى أبعد الحدود عن فن السيرة والمغازي و عن علم الحديث، فهذا خليفةبن خياط [ت: ٢٤٠ هـ] قد بدأ تاريخه بالهجرة النبوية إلى المدينة و تخلى عن التأريخ للفترة المكية ولعصور ماقبل الاسلام، لأنها جاهلية جبهـا الاسلام.

كما أن غالبية المؤرخين قد شرعوا بالتخلي عن طرائق المحدثين لابإهمال الأسانيد فحسب، بل بدمج متون الروايات المختلفة بغية تقديم رواية واحدة على مسؤولية المؤرخ لاعلى مسؤولية الرّواة.

فقد افتتح ابن الأعثم الكوفي و هو من رجال القرن الثالث كتابه الفتوح بقوله «حدثني ابوالحسين على بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن..... و غير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سراً و علانية، وقد جمعت ماسمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم وألفته حديثا واحداً على نسق واحد».[١]

بعد هذا شرع في سرد الوقائع مهملاً للحوليات وكان ينتقل باسلوب ملحمي من موضوع إلى آخر دون اشارة لاسناد من الأسانيد.

أضف إلىٰ هذا إن غالبية المؤرخين مالوا نحو كتابة الموضوعات المتخصصة وأقلعوا عن التأريخ العام و هذا واضح في فتوح ابن الأعثم و في كتابي أنساب الأشراف و فتوح البلدان للبلاذري - أبوبكر أحمدبن جابر - [ت: ٢٧٩ هـ].

كما أن التمزق السياسي قد شجّع تيارات التأريخ المحلي، و هكذا كتب ابن عبدالحكم [ت: ٢٥٧ هـ] عن فتوح مصر والمغرب، وأرخ ابن يونس [٢٨١ - ٣٤٧ هـ] لأخبار مصر و رجالها و من طرأعليها من الغرباء، وكتب الكندي [٢٨٣ - ٣٥٠ هـ] كتاباً عن ولاة مصر و آخر عن قضاتها كما و كتب عن خططها و مواليها، فمصر الآن قاعدة دولة اسلامية مستقلة و كبيرة مرشحة لتكون مقراً للخلافة الفاطمية.

يضاف إلىٰ هذا كتب أبوحنيفة الدينوري [ت: ٢٩٠ هـ] حول الأخبار الطوال و كتب ابن قتيبة كتاب المعارف مازجاً من جديد الأدب بالتاريخ.

لقد مارس الكتابة بالتاريخ أعداد كبيرة من العلماء والفقهاء مزج بعضهم الأخبار التاريخية بطبقات المحدثين والتجريح والتعديل كما فعل أبوزرعة الشامي و يعقوب ابن سفيان الفسوي [كتاب المعرفة والتاريخ] والملاحظ أن مامن واحد من المصنفين قد أقدم في ظل هذه التيارات و في عصر التمزق السياسي والصراعات الاقليمية والصراعات ضدالخلافة، قد أقدم على التاريخ الشامل للمسلمين أو للعالم المعروف آنذاك قبل الاسلام و بعده.

لقد صعب على المؤرخين مواجهة أمراض عصرهم: وبالنظر لارتباط غالبيتهم بقصور الحكام و رجالات السلطة، فقد سايروهم بالاهتمامات الاقليمية [كما هي الحال في أيامنا هذه] فلم يكتبوا بالتاريخ العام.

انه فقط الامام محمدبن جريرالطبري هوالذي تخطى هذه العقبة الكأداء، و تحدى التمزق والاقليمية والمصالح الآنية، فكتب بالتاريخ العام للاسلام والمسلمين ولغيرهم، و بذلك تميز عن غيره، ولاشك أن هذا قد اسهم كثيراً في تخليده و تميزه و شهرته، فالشعوب الاسلامية التي تتوجه في آن واحد نحو قبلة واحدة و تؤمن بالله و رسوله ماكانت قط غير وحدوية.

ولعل مردّ هذا إلى أن الامام الطبري جاء بالأصل من طبرستان و قد نهل علوم الاسلام في بلده و في بلدان أخرى في ايران ثم تحول نحو العراق، فجال في مدنه حيث أخذ عن علماء كل فن من الفنون، ثم زار بلاد الشام أكثر من مرة وكذلك مصر، و بعد طول تجوال استقر أخيراً في بغداد دارالخلافة، فهو على هذا انتمى الى العالم الاسلامي، و إلى الثقافة الاسلامية الشاملة التي نالها و آمن بها، و بما أن الطبري لم يتزوج ولم ينجب ولم يتصل بذي سلطان، فقد ظل - و إن قام اخيراً في بغداد - الاسلام والمسلمين و ديارهم هم الأهل والوطن و المعتقد والانتماء والهوية.

لقد بلغ الطبري منزلة من العلم أهلته ليكون فقيها لجميع المسلمين، و صاحب مدرسة فقهية جديدة متميزة هو امامها، لذلك كان من المنطقي أن يؤرخ للاسلام ولجميع المسلمين، وفق نظرة خاصة وانطلاقا من رؤية تاريخية واضحة.

إن مسألة الوعي التاريخي الذي تجلى لدى الطبري على درجة عظيمة من الأهمية، فقد تمسك بوحدة الاسلام والمسلمين، و كتب بالوقت نفسه من منظور تاريخي عالمي، استمد مصادره - و هوالفقية المتمكن - من القرآن الكريم و تراث الاسلام، و ماعرفه المسلمون وامتلكوه عن تواريخ الأمم والشعوب لما قبل الاسلام، و قد رأى أن التاريخ الانساني قدمرّ بطورين متميزين: ماقبل الاسلام و مابعده، و من المنظور القرآني إن طور ماقبل الاسلام جملة من العصور كان النشاط التاريخي الرئيسي فيها هو نشاط الأنبياء و الرسل، وقد ختم هذا الطور برسالة الاسلام التي كلف بها خاتم الأنبياء سيدنا - محمد صلى الله عليه وسلم - و بعد وفاته - صلى الله عليه و سلم - بدأ طور جديد هو طور الملوك.

و دون وقفة مطولة مع مانؤمن به الآن حول دور الفرد في صنع أحداث التاريخ و أن التاريخ هو تاريخ الشعوب لا الأباطرة و الحكام و الملوك، إن في العنوان الذي منحه الامام الطبري لتاريخه و هو «تاريخ الرسل والملوك» دلالات كبيرة، فهو على هذا قد اعتبر الذين حكموا المسلمين بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - ملوكاً، ولو رآهم غير ذلك لعنون كتابه بـ «تاريخ الرسل والخلفاء والملوك»، ولا شك أنه بذلك كان يتحدى النظام العباسي و عقيدته المعلنة في عقرداره.

قال الامام الطبري في مطلع كتابه: «و أنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كلّ زمان من لدن ابتداء ربنا ـ جلّ جلاله ـ خلقه الى حال انتهائهم، من انتهى الينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه و نعمه، فشكر نعمه: من رسول مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف».(٢)

و من المقرر أن الامام كتب تاريخه بعدما فرغ من كتابه في التفسير، و شكلت مواد تفسيره أساساً متينالمواده التاريخية، و هو قد اعتمد في كتاب التفسير طريقة التفسير بالعلم، و ابتعد عن الرأي لكراهته له، لذلك جاء تفسيره عبارة عن سلسلة من الأسانيد والروايات.

و نحن وإن كنا لا نعرف متى و أين جمع مواد تاريخه، الذي نعرفه أنه التزم المنهج نفسه لكتاب التفسير في تدوينه لمواد كتابه في التاريخ بقدر الامكان، فقد تقيد بشكل صارم بالأسانيد حسب طرائق المحدثين، إنما اضطر في الأجزاء ـ لاسيما ماتعلق بأيامه ـ الى التحرر تدريجيا من هذا المنهج إلى حدالتخلي نهائياً عن الاسانيد، حيث استخدم أولاً صيغا، مثل: ذكر لي بعض أصحابي، ذكر لي جماعة من أصحابنا، ذكر من رآه و شاهده، أخبرني جماعة من أهل الخبرة، ذكر هذه القضية بعض أصحابنا عن حدثه أنه حضر؛ ثم باستخدام عبارات مثل، و فيها ـ فيما ذكر ـ، و ذكر أن، و فيها أمر، و فيها حبس، و فيها وجه، و فيها شخص، وقد قيل، و كتب السلطان [بدلاً من خليفة أو امام].

ولاشك أن مرد هذا الى المعاصرة، و لعدم عودته إلىٰ الوثائق والمدونات الرسمية، فهو لم يكن من رجال الدولة أو العاملين لديها، مثل أفراد أسرة آل الصابيء الذين ذيلوا على تاريخه فيما بعد.

و بما أن كتاب التاريخ جاء من بعض الجوانب وليداً لكتاب التفسير التزم الامام الطبري بما نقله غيره ولم يحاول أن يتدخل بالروايات لاعن طريق النقد أو التعديل أوالتنبيه أو الشرح، و فعل الشئ نفسه بالنسبة لما وصل الى مسامعه من أخبار عصره فدونه.

قال مؤرخنا في خطبة كتابه: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن أعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على مارويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دونما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلاّ اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين و ماهو كائن من أخبارالحادثين غيرواصل الى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلاّ بأخبار المخبرين و نقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابنا هذا من خبر ذكرنا عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستبشعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولامعنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، و انما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، و إنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا»(٣)

إن هذا الموقف قد يقبله الانسان بصعوبة بالنسبة لأخبار الماضين من مؤرخ لم يتقن فن علم الرجال من جرح و تعديل مع القدرة على نقد المتن و تصحيحه، أما بالنسبة للامام فصعب جداً قبوله، والأصعب منه، لابل المحال، قبول هذا المنطق بالنسبة لما عاصره من أحداث، إنه منطق مرفوض، فالبحث في التاريخ يقتضي تسجيل أخبار الوقائع كما يعتقد أنها وقعت، والتاريخ كما دونه الطبري أخبار سياسة وحرب، فهو على هذا «ليس دينا» كما في تسجيل ماتعلق بالتفسيروالحديث والشمائل.

أضف إلى هذا لقد كان بإمكان الطبري الذي طاف في بلدان ايران والعراق والشام و مصر أن يصف لدى عرض بعض أخبار هذه البلدان، مشاهداته و خلاصة تجاربه، كما فعل ـ مثلا ـ البلاذري عندما أرخ للثغور في بلادالشام، أو كما فعل الواقدي حين أرخ للمغازي، حيث ذهب إلى مواقع الأحداث و تفحصها بكل دقة ممكنة و من وصفها بشكل مفيد جداً، فقد زرت منذعدة أشهر موقع أحد، فوجدت صعوبة بالغة في تخيل وقائع معركة أحد، ولولا وصف الواقدي للمكان لبقيت في حيرة حول هذا القضية.

والمثير للدهشة في موقف الامام الطبري هذا هوأنه أيضا لم يتـأثر بـطرائق الكتـاب المسلمـين بحب الاستـطراد، و سردالحكايات و ضرب الأمثلة.

لقد حرمنا الطبري من مواد لاشك أنها كانت ثمينة جداً عمرانياً و سياسياً و حتى اجتماعياً، ولاشك أن أمانة هذا المؤرخ الكبير و شدة تقيده بطرائق المحدثين، دفعته الى التعويل كلياً على غيره و إلىٰ اهمال النقد و حتى إلى تعطيل ملكات النقد العقلية، اللهم إلاّ أحيانا عند ما كان يقول: والله أعلم.

والغريب حقاً في هذا المقام هو أن الامام الطبري أورد الأسانيد فقط، ولم يورد أسماء الكتب التي نهل منها معلوماته، فهو بدون شك كان قد اطلع على مصنفات من سبقه مثل سيف بن عمر، و أبي مخنف والكلبي وابن اسحق، و غيرهم، و أنه حمل اجازات في رواية محتويات هذه الكتب، وكم كان مفيداً لو أنه لم يهمل أسماء الكتب ولم يكتف بالأسانيد فقط، فهو بهذا سبّب خسارة حضارية كبيرة، حيث حرمنا من معرفة من أي كتب الشيوخ نقل، كما حرمنا من التعرف إلى التوزع الثقافي في عصره في الأقاليم و من نوعية المكتبات و محتوياتها في كل بلد من البلدان، إن وجدت.

وقد يدافع المرء عن هذا الموقف بقوله: إن الامام الطبري الذي التزم بطرائق المحدثين كانت الرواية هي المحببة إلىٰ نفسه في التاريخ كما في التفسير، و إن اسم الراوي غالباً ما يغني عن اسم مؤلفاته، لأن مؤلفات الأوائل كانت محدودة العدد، محددة المواضيع، لكن وقد التزم هذا الامام العظيم بطرائق المحدثين، حبذا لوتابع هذا الالتزام بجميع شروطه فنقد رجال الاسناد و جرح و عدل، ورجح رواية على أخرى، ولم يرو عن الضعفاء ولا روايات الاسرائيليات والأساطير، ففي هذا فوائد كبيرة و منافع لاتحصى، أوليها من حيث نوعية المواد التاريخية و ثانيها بالنسبة لعصر الطبري و شخصيته العلمية، فهو قد حرمنا من التعرف إلى ملكة النقد و الجرح والتعديل لديه كمحدث بارز، كما و حرمنا من التعرف إلى المرحلة التي وصل إليها علم الرجال في أيامه مع مدى تأثر النظرة العلمية بالمؤثرات الاقليمية و غيرها من المؤثرات.

ذلك أن تاريخ الاسلام، لاسيما الفترات المبكرة منه، أشد حساسية من غيرها، فيها روايات أملتها عواطف الرواة المذهبية والعرفية والاقليمية والسياسية، أو اختلاف المواريث و وجهات النظر والفهم، مع مدى التعمق في معرفة حقائق الأمور، و كان تاريخ صدر الاسلام و مازال موضع مناقشات حادة، و موطن جدل كبير، لقد كان على الامام الطبري، و هو مؤرخ محايد، عميق الايمان؛ جمع الأصول، ألا يكتفي بجمع المواد المروية و تكديسها و تصنيفها و تقميشها، بل كان من المتوجب أن يعرض كل رواية من رواياته بشكل كامل دونما توقف لابراز مشاكل الخلاف، و من ثم يوجه النقد إلى الروايات و يرجح بعضها على بعض. لوأنه فعل ذلك لسهل علينا التعامل مع كتابه، و لساعدنا بشكل كبير على الوصول إلى حقائق الوقائع، ولقدم لنا برهان كبير على أن حركة التأريخ بالعربية في القرن الثالث قد قطعت أشواط بعيدة في التطور، و أن الفقيه والمحدث يمكنه أن يكون بالفعل مؤرخاً مبدعا، و ليس مصنفا محضاً.

واخفاق الطبري في الوصول إلى هذا الهدف المنشود فيه برهان على أن الفقيه والمحدث إذا ما كتب في التاريخ لم يتعد دوره الجمع والتصنيف والتقميش، فهو قد تدرب على هذا النوع من التقنية عقليا و ممارسة عملية، فهذا هو الحال في التاريخ الاسلامي، و يحضرني هنا شاهد من بين ما أعمل به حاليا من مصادر تاريخ بلاد الشام، فقد كتب ابن عساكر في تاريخ دمشق، كما كتب بعده بجيل ابن العديم في تاريخ حلب. والفرق بين كتابي ابن عساكر و ابن العديم كالفرق بين الفقيه و رجل الدولة السياسي المحنك والاداري الخبير، و ابن عساكر فقيه محدث كتب بالتاريخ، في حين كان ابن العديم سياسيا و رجل ادارة صارت له اهتمامات بعلم الحديث، و حين كتب في تاريخ حلب برهن من كل جانب أنه يمتلك احساس المؤرخ و منهجه، و أنه ليس كابن عساكر مجرد مقمش مصنف.

و من المؤكد أن هذا الوضع لايقلل كثيرا من أهمية ابن عساكر و تاريخه العظيم لدمشق، والشيء نفسه يتعلق بالامام الطبري، فتاريخ الامام الطبري ـ على الرغم من كل شيء ـ خزانة من المعلومات التاريخية الاسلامية القيمة، فيه روايات عن تاريخ صدرالاسلام ونصوص جمعها بكل حرص و عناية و دقة ممكنة، و سردها بكل حياد و نزاهة، لذلك احتل مكانة الصدارة بين مصادر تاريخ الاسلام و هي مكانة لم يحتلها غيره، ولايمكن لمصدر آخر ان يزاحمه عليها، فمن غيرالممكن بالنسبة لأي باحث في تاريخ الاسلام الاستغناء عنه، و مهما عاد المرء إلىٰ المصادر المختلفة سيجد نفسه مع كل مصدر يبدأ حيث انتهى الطبري، قال الوزير القفطي[٤] «وإذا أردت التاريخ مفصلا فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري ـ رضي الله عنه ـ فإنه من أول العالم و إلى سنة تسع [الأصح: ثلاث] و ثلاثمائة، و متى شئت أن تقرن به كتاب أحمد ابن أبي طاهر و ولده عبيدالله فنعم ماتفعل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية، و أتيا من شرح الأحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده، و هما في الانتهاء قريبا المدة،

والطبري أزيد منها قليلا».

ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فإنه يداخل الطبري في بعض السنين، ويبلغ إلى بعض سنة ثلاث [الأصح: خمس] و ستين و ثلاث و ستين و ثلاثمائة، فإن قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله، فإن في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الأماكن، ثم كتاب هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء فانه داخل كتاب خاله ثابت و تمم عليه إلى سنة سبع و أربعين و أربعمائة، ولم يتعرض أحد في مدته إلى ماتعرض له من أحكام الأمور والاطلاع على أسرار الدولة، و ذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع، و تولى هوالانشاء أيضا، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمدبن هلال، و هو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين و أربعمائة».

من المؤكد ـ كما أشرنا من قبل ـ أن الامام الطبري شرع في تصنيف كتابه في التاريخ بعد ما فرغ من تصنيف و املاء كتاب التفسير، ولعله فعل ذلك بعد سنة / ٢٩٠ / للهجرة، وقد فرغ من إملائه و مراجعته يوم الأربعاء الثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٣ للهجرة.(٥)

و طبعا أملى الطبري تاريخه في بغداد، والذي لانعرفه: هل كانت مواد الكتاب، أو بعضها مجموعة لديه قبل الاستقرار في بغداد، و هل كان في خططه المبكرة التأريخ للاسلام والمسلمين منذكان يجمع العلم من مختلف الآفاق؟

إن مسألة المصادر حاسمة بالنسبة لكل مصنف بالتاريخ، و إذا كنا غير قادرين الآن على ايجاد حل لمسألة المصادر هذه [لم يتعرض لهذه المسألة جواد علي في كتابه موارد الطبري] الذي نعرفه أنه عندما شرع الامام الطبري في املاء تاريخه كان العالم الاسلامي قد شهد قيام خلافة معارضة للخلافة العباسية هي الخلافة الفاطمية في المغرب، فهل لهذا السبب، ام لأسباب أخرى تتعلق بالمعرفة الجغرافية المباشرة والخلفيات، وباهتمامات الناس في بغداد، اهتم الامام الطبري بالتأريخ للأندلس و بلدان المغرب العربي اهتماماً عرضيا و سطحياً فقط؟.

لعل المواد الاخبارية المحلية عن تاريخ الأندلس والمغرب لم تتوفر له لأنه لم يزر لابلاد الأندلس ولابلدان المغرب، و إذا صحّ هذا التعليل فإنه قد يعني أن الامام الطبري حين اهتم بتاريخ بلدان المشرق الاسلامي فعل ذلك لانه كتب في بغداد حيث المواد الشرقية و فيرة، و في الوقت نفسه حين اهتم بتاريخ مصر والشام بعض الاهتمام تحكم به حجم المواد التي توفرت له ببغداد لاحجم ماجمعه من مصر والشام، إن كان قد جمع شيئاً.

نحن نعلم أن حركة التاريخ بدأت في المغرب متأخرة ـ بعد عصر الطبري ـ و أن هذه الحركة قد بدأت في الأندلس أبكر. لكنها سارت على سنن أهل المشرق واتبعت مناهجهم. فهل هذا ياترى سبب قلة المواد التي توفرت في تاريخ الطبري عن بلدان العالم الاسلامي التي وقعت غربي نهرالفرات؟.

أرجح هذا لأن الطبري عوّل على النقل بالاسناد، و شرع في املاء تاريخه بعدما مضى على استقراره في بغداد.فترة طويلة، و أن فكرة التاريخ لم تكن قديمة لديه، و مع هذا لكم يتمنى المرء لو أن الطبري علل لناهذا الأمر، أو اشار إلى مايساعد على تعليله، ولم يتركنا في لجة أوهام الفرضيات التي قال بعضها. إنه بخلفياته الاقليمية ولكتابته في بغداد، اهتم ببلدان المشرق اهتماما رئيسيا و أهمل بقية البلدان، ذلك أنه من الملاحظ أن المواد في كتابه حول بلدان جند الكوفة أقل منها حول جند البصرة.

و إذا ما استعرضنا عناوين محتويات الأخبار المتعلقة بالقرن الثالث للهجرة التي أودعها الطبري في تاريخه، و بعد ذلك تفاصيل الروايات نلاحظ أولاً أنه استمر بالعناية بالتاريخ السياسي والعسكري المرتبط بالدولة والمؤسسات الحاكمة و أهمل ما عداها مع أنه كان رجل فكر، كما ونلاحظ أن القرن الثالث للهجرة قد شهد أحداثاً على درجة عظيمة من الأهمية من ذلك القضاء على ثورة بابك، و نصر عمورية الكبير، إلى مصرع الخليفة المتوكل و سيطرة ضباط القصر، الأتراك على السلطة في دار الخلافة، و حكمهم على الخلفاء، و تمزق ديار الخلافة العباسية و ظهور الدول المستقلة عنها، و ثورة الزنج، و أخيرا لاآخراً حركات القرامطة.

لقد شهدالقرن الثالث للهجرة تحولات اجتماعية كبيرة مع انقلابات اقتصادية و صناعية، و تجمعت الثروات في أيد قليلة، و صار للبيوتات التجارية والمالية مكانتها على صعيد السلطة و غيرها، كما اتسع حجم الاقطاع الزراعي و بات رجال السلطة يملكون العديد من القرى الدساكر و يطلبون المزيد فيحصلون عليه بشتى السبل الملتوية، من شراء بالاكراه أو اغتصاب أو

نادرة، واستخدام الاقطاعيون أعداد هائلة من العمال في زارعهم، وجلبوا مالايحصىٰ عدده من الرقيق، خاصة لأسود منه، للعمل الزراعي المرهق، خصوصاً في جنوب العراق و سوادي البصرة والكوفة.

و مع منتصف القرن الثالث ـ و هي فترة عاشها الامام لطبري بمثابة شاهد عيان ـ بدأالضعف يلم ـ كما أشرنا ـ بالكيان لعباسي، و أخذت المشاكل تتفجر بلاانقطاع، و تواءم هذا مع ستيلاء الجند على السلطة و حكمهم على الخلفاء، و بعد ما فعل لغلمان الأتراك هذا انعدم الاستقرار السياسي، و اشتدت الصراعات على منصب الخلافة، و تعددت الانقلابات الدموية الشرسة، و هكذا ازداد تدهور الأوضاع من جميع الجوانب، واشتدالطلب للذهب، و عظم دورالبيوتات المالية اليهودية ـ الجهابذه ـ و في الوقت نفسه استمر في تلك الأثناء ارتباط رجال الدين ـ السنة ـ بالسلطة ممثلة بدار الخلافة و دورالقادة والوزراء، و تورط بعضهم بالنزاعات السياسية، و صاروا يسدلون ثوب الشرعية على كثير من الأعمال غير الشرعية، و يقدمون المسوغ لما لايقبل التسويغ، يضاف إلى هذا أن الحنابلة سيطروا منذ أيام المتوكل على شارع بغداد، و شغلوا انفسهم بمشاغل لاهوتية لاتسمن ولاتغني من جوع، غافلين ـ أو متغافلين ـ عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الامة بالخطر.

لقد أفلس الفكر الاسلامي المرتبط بالسلطة، وعجز عن العطاء الاجتماعي، وفقد الناس بكبار العلماء والقضاة لتورطهم مع رجال السلطة، ولشغل أنفسهم بالتجسيم و مسائل علم الكلام الأخرى، كما أن هؤلاء العلماء والقضاة باتوا غيرمحترمين من رجال السلطة، و مجرد أداة تحت تصرفهم.

و نسوق هنا شاهد مما رواه الامام الطبري(٦) حول خلع الخليفة المعتز في سنة ٢٥٥ للهجرة ـ و هذا موضوع لناعودة نحوه ـ فبعد ما وصف ما تعرض له المعتز من اهانات و ضرب قال: «ثم بعثوا إلى ابن أبي الشوارب ـ قاضي القضاة ـ فأحضروه مع جماعة من أصحابه، فقال له صالح ـ بن وصيف ـ وأصحابه: اكتب عليه كتاب خلع، فقال: لاأحسنه، و كان معه رجل أصبهاني فقال: أنا أكتب، فكتب و شهدوا عليه و خرجوا، وقال ابن أبي الشوارب لصالح: قد شهدوا أن له ولأخته وابنه و أمه الأمان، فقال صالح بكفه: أي نعم».

نعم لم يجشم نفسه هذا العناء عناءالرد على قاضي قضاة المسلمين، و كيف يفعل ذلك و قبل قليل جرّ الخليفة على وجهه وسحله سحلاً.

لقد عاصرالامام الطبري أحداث القرن الثالث و عاش وقائع النصف الثاني منه، عاشها في العراق والشام و مصرالطولونية، و هو كما أشرنا من قبل لم يرتبط بالسلطة والسلطان واتسم بتماسك الشخصية والحياد والنزاهة و الشجاعة و ارهاف الحس والذكاء، و دقة الملاحظة، لذلك كان من المتوقع والحال كما و صفت أن نجد ثنايا مادونه عن عصره أوسع التفاصيل مع الصورة الزاخرة اجتماعيا و فكريا و حتى اقتصاديا، أن نجد عنده مالا نجده عند غيره، فهل منعه رقيب أوخاف منه؟ فهو قد أملى كتابه املاء ولم يدونه و من ثم دفعه إلى الورّاقين كما اعتاد غيره أن يفعل.

لامكان للأماني بين وقائع التاريخ و كلمة «لو» مرفوضة لدىٰ الباحثين، لهذا إذا كنّا قد قلنا من قبل لدى تقويم المواد التى نقلها الطبري عن تاريخ الفترات التي سبقت عصره: إن كل باحث يجد نفسه مرغما على أن يبدأ من حيث انتهى الطبري، إن على الطبري ـ بالنسبة لعصره ـ أن يبدأ من حيث انتهى غيره.

فهو من حيث المنهج قد تخلى عن الأسانيد، و تخلى بالتالي عن تعدد الروايات، و جاءت رواياته الآن و في غالب الأحيان قصيرة مبتورة، كما أنه أهمل روايات أخبار كثيرة جدا، فقد سبق له ـ مثلا ـ أن وصف في أحداث سنة ٢١٠ هـ(٧) بناء الخليفة المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل، ولكثرة الذي ظهر في حفل الزفاف بات هذا الحفل يعرف باسم «دعوة الاسلام» و ظلت «دعوة المأمون حين بنى على بوران ابنة الحسن سهل تسمى دعوة الاسلام حتى جاءت دعوة بركوارا».

وكانت دعوة بركوارا بعد سنة ست و ثلاثين، أي بعد ما بايع المتوكل لأولاده: المنتصر والمعتز والمؤيد بولاية العهد، و جرت «لما أعذر المعتز» ابن قبيحة حظية المتوكل، و وصف الصولي هذه الدعوة بقوله: «أن المتوكل جلس و مدت بين يديه مرافع ذهب مرصعة بالجوهر و عليها من العنبر والمسك المعجون أمثلة على جميع الصور، و منها ماقد رصع بالجوهر مفرداً، و منها ماعليه ذهب و جوهر، و جعل بساطاً ممدوداً، و أحضر الجلساء و سائر الناس، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأنواع الجوهر، و

Page 21

جعل بين صوانيهم من الجانبين و بين طرفي هذا المعبّ فرجة، وجاء الفراشون بزبل قد غشيت بالأدم مملوءة دنانيرو دراهم نصف فصبت في الفرجتين حتى ارتفعت على الصواني، و أمرالناس أن يشربوا و يتنقل من يشرب من تلك الدنانير ثلاث حفنات بكفه كأنها ما كانت، و كلما خف موضع جيء بالزبل فرد إلى حاله، وّوقف غلمان في آخرالمجلس فصاحوا: إن أميرالمؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ماشاء، فمدالناس أيديهم إلى المال فأخذوه، و كان الرجل منهم يثقله مامعه فيخرج فيسلمه الى من معه ويرجع، و خلع على سائرالناس، بعد أن صليت الظهر، خلعاً حساناً على مراتبهم، و كذلك بعدالعصر والمغرب، وأعتق ستة آلاف نسمة، ولم يتخلف عن هذا الأمر أحد، و كان فيه جلساء المتوكل كلهم».

و بعد أيام من هذا الحفل المروع أجرى المتوكل نفسه حفلاً آخر بمناسبة ختم المعتز للقرآن الكريم، نثر فيه من الجواهروالدراهم والدنانير مالايحصى، و امتد الحفل عبرعدة أيام: «في يوم منها دعته قبيحة، فيقال إنه لم يَريوم مثله سروراً و حسناً و كثرة نفقة، و أن الشمع كله كان عنبراً إلّا الشمعة التي في الصحن فإنه كان وزنها ألف منّا، فكادت تحرق القصر، و وجد حرها من كان في الجانب الغربي من دجلة.

وقد كان أمرالمتوكل أن يصاغ له سريران أحدهما ذهب والآخر فضة، و يفرش السريرالفضة ببساط حب و برذعة حب و وسادي حب، و مخدتي حب و مسندي حب منظوم على ديباج أسود، و كان طول السرير تسعة أذرع.

قال: فأخرج من خزانة الجوهر حب عمل منه ذلك، فكان أرفع قيمة الحبة ديناراً، و أقل القيمة درهماً، فاتخذله ذلك، و أمر بفرش السرير الذهب بمثل فرش السرير الفضة منقوشاً بأنواع الجوهر الأحمر و الأخضر و الأصفر و الأنواع ففرشا فقعد عليهما هو و قبيحة، ثم و هبهما لها.(٨)

إن هذا الوصف مهم بالنسبة للباحث في تاريخ الدولة العباسية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والصناعية الى غيرذلك، هذا كله لم يشر إليه الطبري أدنى إشارة لكنه أشار(٩) إلىٰ أن المتوكل أمر في سنة الحفلات هذه «بهدم قبرالحسين بن علي، و هدم ماحوله من المنازل والدور، و أن يحرث و يبذر و يسقى موضع قبره، و أن يمنع الناس من اتيانه».

لاشك أن السياسة الدينية للمتوكل لاسيما تجاه الشيعة و أهل الذمة قدأرادبها اشغال الناس عنه و عن بذخه و اهماله للثغور و مشاكله مع غلمان القصر، فبعد احتفالات بركوارا بفترة ليست طويلة هاجم الاسطول البيزنطي ثغر دمياط في مصر و أعمل بأهله القتل والتحريق والسبي.

من غيرالممكن عقد مقارنات بين مارواه الطبري عن أحداث عصره و ماوراه غيره مثل الصولي و الدولابي، فذلك قد يحتاج الى اطروحة خاصة، ويكفينا هنا اثارة الموضوع والتنبيه على أهميته، و على هذا لعله يكفي أن نتوقف مع ما رواه عن حركة القرامطة و تطور نشاط أتباعها في العراق والشام، إنما قبل ذلك هناك سؤال يخطر بالبال هو: كيف كان الطبري يحصل على المعلومات حول حوادث عصره؟.

من حيث المبدأ نادراً ما تعرض الطبري لذكر مصادره، و يرجح أنه لم يطلع على الوثائق الرسمية ومدونات الحكومة، فهل ياترى دون ماتداولته أوساط العلماء والطلبة مع أوساط العامة؟ إذا صح هذا فإنه كان شخصيا حبك الأخبار وصياغتها و تدوينها، و أن مسؤولية الانتقاء مع التدوين تقع هنا عليه، و أن مادونه هو مرآة عاكسة لشخصيته، أكثر مما هو دليل على حجم و نوع المواد الاخبارية التي وصلت إلى أوساط الناس في بغداد، ولعل أصدق برهان على هذا الرأي هوماراواه حول نشأة حركة القرامطة.

فبعد ما أورد لنا حكاية حمدان قرمط بشكل متداخل و شبه اسطوري هوالأشبه بمايتداوله عامة الناس، سجل لنا نص كتاب قال، إن القرامطة حكوا فيه مذهبهم.

لم يتفحص الطبري مادته التي دونها عن نشأة القرامطة بدقة، فقرمط ساعة مؤسس مذهب و مرة أخرى داعية لمذهب نال اسمه منه أومن داعية آخر، و في الوقت نفسه يقال إن هذا المذهب دين خارج عن دين الاسلام.

وزاد الأمر تخبطاً حين روى لنا صيغة كتاب مطلعه: «بسم الله الرحمن الرحيم: يقول الفرج بن عثمان ـ و هو من قرية يقال لها نصرانة ـ داعية إلى المسيح، و هو عيسى، و هو الكلمة، و هو المهدي، و هوأحمدبن محمد بن الحنفية، و هو جبريل، و ذكر أن المسيح تضور له في جسم انسان و قال له: إنك الداعية، و إنك الحجة، و إنك الناقة، و إنك الدابة، و إنك روح القدس، و إنك

يحيى بن زكريا...».

إنه لأمر يبعث على الدهشة أن يثبت الامام الطبري هذا النص في كتابه، بكل تناقضاته و أوهامه، فقد روى أولاً قبل ايراد هذا النص أن الذي انتسب إليه القرامطة هو رجل قدم من ناحية خوزستان، اسمه حمدان، و نال لقب قرمط، لكن الآن لاوجود لهذا الرجل في الكتاب الذي حوى عقيدة القرامطة، و حل محله من اسمه الفرج بن عثمان من قرية اسمها نصرانة و ليس من خوزستان، و في هذا الكتاب الذي بدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» فيه عقيدة تتصل بالمسيحية واليهودية والمندعية والكيسانية وآثار اسماعيلية مع أخذ بفكرة المهدي المنتظر، وهذا مالم تثبته الكتابات القرمطية و ما جاء لدى رجال الملل والنحل.

لقد فحصت مسألة نشوء القرامطة في كتابي «الجامع في أخبار القرامطة» و وجدت أن سعد القمي أقدم رجال القرن الثالث ممن أشار إلى القرامطة و بداية حركتهم، و الفارق كبير جداً بين ماجاء عندالقمي و ماجاء عندالطبري، يقول القمي: وتشعبت بعد ذلك فرقة... ممن قال بامامة محمدبن اسماعيل تسمى القرامطة، سميت بذلك الرئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب بقرمطويه.... و قالوا: يكون بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - سبعة أئمة: علي و هو امام رسول والحسن والحسين و علي بن الحسين، و محمد بن علي، و جعفربن محمد، و محمدبن اسماعيل بن جعفر و هوالامام القائم المهدي و هو رسول، و هؤلاء رسل أئمة، وزعموا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس بغدير خم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى أميرالمؤمنين و فيه، و اعتلوا في ذلك بخبر تأولوه و هو قول رسول الله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة و تسليم منه ذلك لعلي بن أبي طالب بأمرالله، وأن النبي - صلى الله عليه و سلم - بعد ذلك صار تابعاً لعلي محجوباً به، فلما مضى أميرالمؤمنين صارت الامامة والرسالة في الحسن ثم صارت من الحسن في الحسين، ثم صارت في علي بن الحسين، ثم في محمدبن اسماعيل بن جعفر، كما انقطعت الرسالة عن محمد في حياته، ثم إن الله بدا له في امامة جعفر و اسماعيل فصيرها عزوجل في محمدبن اسماعيل، واعتلوا في ذلك بخبر رووه عن جعفر بن محمد أنه قال: ما رأيت مثل بداء بدا الله في اسماعيل، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي لم يمت، و أنه غائب مستتر في بلاد الروم، و أنه القائم المهدي و معنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة و ينسخ بها شريعة محمد و أن محمد بن اسماعيل من أولي العزم، و أولوا العزم عندهم سبعة.... و اعتلوا في نسخ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأخبار رووها عن جعفر بن محمد أنه قال: لوقام قائمنا علمتم القرآن جديداً.... و زعموا أن محمدبن اسماعيل هوخاتم النبيين.... و أن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة، في كل جزيرة حجة، و أن الحجج اثناعشر.... وزعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده و سنها نبيه فيها ظاهر و باطن... و استحلوا مع ذلك استعراض الناس بالسيف و سفك دمائهم والشهادة عليهم بالكفر و الشرك ... و قد كثر عدد هؤلاء القرامطة، ولم يكن لهم شوكة ولاقوة، و كان كلهم بسواد الكوفة، وكثروا بعد ذلك باليمن و نواحي البحرين واليمامة و ما والاها، و دخل فيهم كثير من العرب فقوي حالهم بهم وأظهروا أمرهم(١٠)

لقد أكد كلام القمي الذي اختصرته النوبختي ثم الأشعري و من جاء بعدهما من كتاب الفرق، و دعمته المواد التي أودعها الداعية القرمطي عبدان في كتابه «شجرة اليقين». و توصلت بنتيجة البحث إلى أن حركة القرامطة كانت باطنية تفرعت عن الدعوة الاسماعيلية، و أنها كانت سبعية تعليمية، تؤمن بعقيدة القيامة التي فيها القائم سابع الأنبياء ذوي العزم وآخرهم.(١١)

من هنا قلت إن الطبري يبدأ بالنسبة لأخبار عصره من حيث انتهى غيره، لقد كان من المنتظر من هذاالمؤرخ الكبير الواسع العلم الغزير المعرفة أن يقدم لنا غيرما قدمه عن القرامطة و غيرذلك من أحداث عصره.

لاشك أن عزلة الطبري و بعده عن رجال السلطة ورجالتها و عيشه في وسط عام شبه شعبي هوالذي أملى نوعية المواد التي دونها، و هذه المواد و إن كانت غير وافية، و بعضها غيرمقبول - كما ذكرنا حول نشأة القرامطة - إن هذه المواد لها قيمتها الكبيرة لأنها صدى مدوي لما تداوله بعض العلماء و العامة في بغداد بعيداً عن دار الخلافة و قصور القادة والوزراء والكتاب، و إذا صح هذا التصور، فإنه يضفي على تاريخ الطبري قيمة خاصة عالية، و يجعله بالفعل فريداً لابالنسبة لما كتبه عن تاريخ الاسلام المبكر فحسب بل لما كتبه عن عصره.

المصادر والهوامش:

١ ـ كتاب السير والمغازي والفتوح، سهيل زكار، ط. بيروت سنة ١٩٨٩ ميلادية.
٢ ـ تاريخ الطبري، ج١، ص٦، ط. دارالمعارف.
٣ ـ تأريخ الطبري، ج١، ص٧ ـ ٨.
٤ ـ تاريخ الحكماء، للقفطي، ص١٠٩ ـ ١١١
٥ ـ انظر معجم الادباء، ٦/٤٢٥.
٦ ـ تاريخ الطبري، ج٩، ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.
٧ ـ تاريخ الطبري، ج٨، ص٦٠٦ ـ ٦٠٩.
٨ ـ بغية الطلب، ج٨، ص٣٧٦٣ ـ ٣٧٦٦.
٩ ـ تاريخ الطبري، ج٩، ص١٨٥.
١٠ ـ المقالات والفرق، ص٨٣ ـ ٨٦.
١١ ـ انظر الجامع، ج١، ص١٠٩ ـ ١٢٣.